القلم وما كتب

مؤتمر الاعلام العراقي في باريس

محمد سعيد الصكار

هذا ليس عتاباً على احد، فأنا لا احب العتاب، ولا هو سجال كلامي، فهو مما لا اجيده، ولكنه ايضاح لمجموعة من اصدقائي ممن ضمهم (مؤتمر الاعلام العراقي في باريس) هذه الايام. فقد علمت ان عدداً منهم عتب عليّ لغيابي عن حضوره، وربما عده من قبيل الاستعلاء وعدم الاحتفاء بمن حضر منهم وقد عز عليّ ان يذهب بهم الظن هذا المذهب، وانا المحب لهم والتواق لمشاركتهم هموم الاعلام واشكالياته والنظر في امكانية الخروج من مآزقه، والنهوض به الى المستويات الجديرة به والمطلوبة منه.

هذا وجه الحقيقة الاول، اما وجهها الآخر، فهو انني لا اعلم عن هذا المؤتمر أي شيء، لا من اليونسكو ولا آية جهة، ولم اتلق دعوة لحضوره او المشاركة فيه.

قلت في نفسي، ها أنت في باريس منذ تسعة وعشرين عاماً، واسمك معروف وعنوانك كذلك، وما زلت تواصل عملك الصحفي منذ إحدى وخمسين سنة، وانت من اعضاء المؤتمر التأسيسي لنقابة الصحفيين، وما زلت تحمل بطاقتها باعتزاز، وما زلت تكتب في الصحافة حتى قبل يومين، فكيف تغيب عن نشاط مثل هذا؟

(الخميس ٢٠٠٧/١/١١) اختتم المؤتمر، وانا لم اتلق حتى ساعة متأخرة من ليل الاربعاء، أي نداء تلفوني من أي من الاصدقاء الذين حضروا المؤتمر، او ممن نظموه.

فيا أصدقاء العمر والمهنة الكريمة، ليس في عدم حضوري استعلاءاً او مكابرة، وانما هذا ما حصل، وللعمر والتجربة حق كان جديراً بالتذكر، وانا احترم حقي في ذلك، وقد علمت بأن كثيراً من الحاضرين هم خارج النشاط الاعلام الذي انا في الصميم منه ومع ذلك فلا عتب على احد.

مقدمات في توصيف ثقافة ثالثة

سعد القصاب

بذريعة العصر الذي نحياه، بتحولاته العاصفة وطبيعته التقنية الفائقة الدقة. يمكننا الثقة بـ"الصورة"، ليس بأسباب النظر إليها، ولكن لقدرتها على الحضور بهذا الشكل المذهل. تجاوز الزمن، ذلك الوضع الذي كانت فيه صامتة، محتمية بهالتها وجمالها و فرادتها. فـ"الصورة" الان لم تعد تكتفي بالتمثيل والتشخيص، بل أصبحت تحتفظ بإمكانية مناهضة العالم الخارجي، جراء تشكيل واقع خاص بها،غالبا ما يكون بديلا عنه، حتى ولو كان الأمر لبرهة واحدة. باتت "الصورة" إذن موجهة ومؤثرة في حياتنا، لأنها مقنعة ومغرية وساحرة وجديدة.

مع اعتباران"الكتابة"هي الطور الثاني للثقافة، معرفة وتداولا،منذ بداياتها قبل خمسة الاف سنة. وبعد افتراض "الشفاهية" طورها الأول، يمكن لنا الزعم بأننا على أعتاب طور ثالث، يتجلى فيما يمكن تسميته بثقافة "الصورة". التي تحولت الى أن تكون خطابا حاملا لمعنى وأداة تفكير كثير الجدة.

لم تعد الكتابة بمفردها مادة لفكرة ، ف "الصورة" تحالفت مع العصر كي تكون كذلك. إلا ان الفرق في الحالتين لا يعدو أن يكون المعنى في الأولى ظاهرا بطريقة سطرية، بينما في الثانية حاضرا بشكله البعدي والمرئي. من هنا علينا النظر إليها كذلك، باعتبارها حدا فاصلا بين قيم ثقافة تقليدية سابقة وقيم ثقافة معاصرة ومبتكرة. فهي أحدى صنائع الحداثة ونتاج تقنياتها، أو بالا حرى خلاصة علاقة فاعلة بين الثقافة والتقنية. كما إنها باتت مصدرا مهيمنا، بل حتى مستبداً أحيانا في تشكيل أو إعادة صياغة الوعي الفردي والجمعي، نفسيا وجماليا واجتماعيا. جراء تأثيرها القائم والمتعدد بفعل السيولة التي تتمتع بها في عصرنا الحديث. وحالة حضورها المتسارع في كشف التبدلات والتحولات التي تصيب العالم، ووصفها تلك المتغيرات عبر مرموزاتها البصرية بطريقة واضحة وجاهزة وتقنية.

لاشك في أن مجالا كهذا، أصبح وجودا ثقافيا لحضارة جديدة، هي ذاتها حضارة معلومات وصور، نتلقاها عبر الشاشات وواجهات العرض. وفي عالم كهذا، يبدو إننا لم نعد نمتلك الرغبة أو حتى الإرادة في الاختيار، بل نقف مرغمين أمام ما نراه.

مقدمة أولى : لطالما اعتبرت الأشكال والرموز والعلامات المنحوتة والمنقوشة والمرسومة منذ فجر التاريخ، بمثابة"صورة"، تمثل أداة اتصال وتكريس لوظائف طقوسية وشعائرية وسحرية.وبما انطوت عليه من قدرة على المحاكاة والإيهام واستدعائها لحاجات وتشكيل علاقات مع الأشياء والعالم، حتى وان كانت حافلة بالوهم.

كان كل ما هو سحري وطقوسي والذي يستدل به على اللامرئي الغريب، الغامض، الشديد الخطر، يمكن جعله ماثلا ومشخصا من خلالها. حاضراً بشكله المجازي للحماية والدفاع أو حتى الشفاء. بأثر أشكال ملتبسة وإشارات غير صريحة تتخذ وظيفة متعالية أشبه ما تكون تكريسا لفعل غير دنيوي، ممارس من قبل أناس ذوي بصيرة مكفولين من قبل الآلهة أو من ينوب عنهم. أمر جعل بعد ذلك الديانات التوحيدية التي قدمت تاليا، تعاين"الصورة"بقدر من الحذر وانعدام الثقة الذي يصل أحيانا حد التحريم، حينا، خوفا من تحولها إلى وثن، أو النظر إليها حينا آخر باعتبارها ممارسة مادية تدعو للبذخ والغواية . ولان ما هو روحي هو الجوهري الذي لا يرى، لذا كانت الصورة تساوي الخطيئة حتما.

لابد من الاعتراف، بأن "الصورة" عاشت تاريخا متغيرا في طبيعة التعامل معها والنظر إليها وتأويلها. وحتى تلك"الهالة"التي لازمتها لعصور كثيرة، تم ترحيلها لاحقا إلى العمل الفني، وهو الاعتبار الذي وظّف تاليا بتوصيفات رفيعة أكثر دنيوية، مثل الساحر، المدهش، الرائع. أن اللوحة الجميلة ساحرة . هكذا يختزل فعل السحر المنسي ذاك باستعادته وكأنه حالة إعجاب. فالفن بضرورة عالمه الدنيوي يحوّل المرئي المتعالي،القديم، إلى نسق بصري، ويجعل "الصورة" فيه ذات منحى علائقي. أن تعبيريتها يراد لها أن تقيم علاقة بين المعنى والواقع، بين الروحي والحسي، أن تفترض رؤية ما لهذا العالم، يحافظ الفن عليها ويسعى لتطويرها.

مقدمة ثانية : فيما كانت "الصورة" في العمل الفني موضوعا جماليا، تقدمت في العصر الحديث كي تكون وسيطا بصريا وأداة وثوقية وإشهارية لأهداف متباينة، من الايديولوجيا إلى الاستهلاك. أن حالة صناعتها باتت نقطة تقاطع لحقول متعددة، التشكيل، الفوتوغرافيا، التقنية الدقيقة للاتصال، تطورات العلم، المعلوماتية، الميديا. مجالات تتفاعل مع بعضها بطريقة غير مستقلة، إلى الدرجة التي تكون الحدود مابينها غير متعينة بل وغير محددة. من هنا، وبفعل هذه النواظم المشتركة والمتداخلة بات التعرض لها يحتمل هذا القدر من الالتباس والتعقيد والسعة في التناول.

تبقى "الصورة" حاضرة بكثافة في حياتنا اليومية وبشكل متكرر، حتى تكاد استجابتنا لها تتحدد باعتبارها مجالا حسيا يمدنا بالمعلومة أو خطابا يتجسد بشكل مرئي. يتمثل كأسلوب مغاير في إيصال معرفة سريعة وعابرة عن عالم يمنح نفسه للمعاينة على نحو سافر. لقد أصبح ذلك المصدر المهيمن في إيصال المعلومة والثقافة. وسيطاً فائق الحضور في جميع الأمكنة والفضاءات، البيت، الشارع، الساحات العامة، وسائط النقل، أماكن العمل. إن كل حدث يتحقق أو معلومة تبث لا تؤكدها سوى"الصورة". في التلفاز، الصحافة، الإعلان، ومواقع الانترنت، وكأنها تاريخ لا ينضب للحاضر، وخلاصة حسية للمسافة الكائنة بين المرئي واللامرئي، المجهول والمعلوم.

مقدمة ثالثة : تحولت "الصورة" الى أن تكون شاغلنا الوحيد، بأسباب وفرة حضوها وسهولة إدراكها. إنها تتطلب عمليات تلق وخبرة اقل مما هي في مجال القراءة. إذ تدعو لما يمكن تسميته بالتفكير البصري، القائم على التصور الحسي والتجريبي، والذي من سماته ارتباطه بالذاكرة والخيال والمتعة، وتحقيق عملية اتصال لا تخلو أبعادها من الوهم. إن المتلقي وعبر نشاط النظر أو الرؤية، يشترك بطريقة تخيلية مع"الصورة"التي ربما يجد فيها مثاله الخاص، فالإيهام الذي تدل عليه يستبق الواقع نحو تشكيل ما يراد وصفه أو التعرف عليه. هكذا عملية، هي بمثابة صناعة واقع خاص، تقوم بتكوينه في أذهاننا كي يتقدم على ما هو يومي وعادي،وبأثر طريقة حافلة بدلالات إيحائية، تؤلف ثقافة تحويلية تدعو الإنسان إلى طرائق تلق وتفكير لا تحصى توازي الوقائع التي تقوم بها التقنية البصرية.

إن واقعها هو ليس الحقيقي المباشر، بل الصوري المصنع بوسائل تقنية، يستبدل خلاله قيما حقيقية بأخرى متخيلة، لا تقيم صلة عملية فاعلة مع الوقائع الميدانية. تكاد حاجتنا الدائمة ل"الصورة"هي حاجة المجتمع المتواصلة إلى الحلم.

مقدمة رابعة : كان لكل عصر طبيعة انشغال وتعبير وإدراك مختلف ل"الصورة". وهو الأسلوب الذي يميز لحظته التاريخية، إلا ان جميع تلك اللحظات كانت تشترك في ارتباطها بالمكان. بخلاف عصرنا الذي تواشجت فيه"الصورة"- المتحركة منها خاصة - مع الزمن. إنها وجراء أجهزة إرسال والتقاط،تعيش معادلة زمنية متساوية في كل مكان في العالم. وكأن الزمن خلالها يختزل في لحظة من البث. واقع نراه عن بعد ولكننا نبصره في لحظة واحدة. ف"الصورة"تشترط علاقتها الخاصة، الكثيرة الامتياز مع الزمن، لكن في زمننا أصبحت صفة هذه العلاقة كامنة في طبيعتها الاشهارية. وبعدما تخلت عن التعبير بوصفه جوهرا جمعيا لتتحول إلى وسيط اشاري، اتسع جراء الوفرة التي تحققت قبل ما يقارب الربع قرن من الزمن، في مجال الأجهزة المرئية ووجودها بصيغة إنتاج جماهيري. إن"الصورة"حاضرة بأثر الدعاية، الإعلان، التسلية، الأحداث،لتشكل وجهات نظر فردية، بشروط دعوتها إلى أساليب خاصة للعيش في الحياة، قائمة على الوفرة والاستهلاك، يكون خلالها الإنسان المستهلك عبر إعلاناتها، كائنا مترفا جماليا يحيا واقعا كثير الرفاه والنعومة.

إن الإنسان هنا يحيا فعل مراقبة لحياة يتوق إليها، حتى وان التمس منها قدرا من الاغتراب، جراء إلزامه باختيارات لا تحصى، لكنه غالبا غير قادر على الحصول عليها. علاقة مبنية على التمني يتم اختزالها إلى أفعال ملاحظة.

ف"الصورة"تستدرج واقعا يحتفظ بالحقيقة ولكنها تفترق عنه وتتفوق عليه. إننا نداوم على استهلاكها كذريعة لتلبية حاجات نفسية متخيلة، تثيرنا ثم نعتادها ثم نبحث عن جديد يغايرها بهاجس لا يخلو من الملل والتحاشي. خيارات تعيش أحلامها وصورها وجوانبها الخفية بفعل اندماج سيكولوجي، قائم على اختلاس النظر ومتعة التلصص وبعدما تتضاءل تلك المسافة بين الخيال والواقع.

إن"الصورة"تتوسط علاقة متخيلة باستدراجها للوفرة والنموذج، وعبر موضعة هذه العلاقة وكأنها الانعكاس الحقيقي للأشياء والبديل المحسوس عنها. مقدمة نفسها وجراء قدرتها على إشاعة الفرجة بتقديم الجديد الذي يدعونا للنظر إليه لفترة أطول. لقد باتت تستثمر أحلامنا من خلال اشهاريتها،خاصة عند ارتباطها ببعد عالمي يتجاوز المحلية، وحيث يسهل تداوله بعيدا عن منظومة المراقبة والعقاب.

مقدمة خامسة : تحقق استحواذ"الصورة"بأثر هيمنتها على ذهنية ووجدان من يتعامل معها ويتلقاها،لقدرتها على تشكيل مجال من الجاذبية والسحر والإغراء.خاصة في ظل حضور كبرى الإمبراطوريات الإعلامية التي لها إمكانية الوصول إلى جميع الأمكنة والأفراد.ولكن رغم ذلك مازالت ثقافتنا حتى مع هذا التعاطي اللا محدود والاستهلاكي ل"لصورة"، من قبل مجتمعات مدنية وأهلية في العالم وانفتاحها على فضاءات تكاد تكون كونية. تتحفظ على محاولة البحث عن رؤية نقدية لمساءلة مادتها ومعنى خطاباتها المرسلة، جراء نظرة حافلة بظلالها الأخلاقية والاجتماعية والفكرية. ما يؤدي بنا إلى تكريس معنى ملتبس لمعنى"الصورة". فعدا خلو أدبياتنا لقراءة مفهومية جادة عن"الصورة"إلا باعتبارها صورة بلاغية. نجد أيضا غياب قراءة أخرى، جمالية وثقافية عن هكذا مفهوم، وبالعلاقة مع التحولات التي يشهدها العالم في مجاله التقني والفني والاقتصادي. إلا في استبدال محاولة التعاطي معها بتصورات سياسية قد توحي بها.

من هنا ضرورة افتراض إطلالة دائمة وداعية بمحمول ايجابي لمفهوم"الصورة"وثقافتها. والتي باتت اليوم أو تكاد تضاهي الدور الذي كانت تعنيه الكتابة في عصور مختلفة. وهذا ما يشكل بداية لأسئلة تحاور اكتشافات مفهومنا الخاص عنها.

رشدي العامل

قصيدتان لم تنشرا من قبل

من وشم الكلمات

عذبتني الليالي، وهم عذبوك،
صلبت على خشب وحديد،
وذقت المسامير في الجسد الطفل،
كانت رمال الصحارى على شفتي،
تُفتت في النوم حتى مذاقك،
يستيقظ التيه والشوك والرمل،
والموت يدنو صبياً خجولاً،
حزين العيون
عذبتني المسافات تقطع عمري،
فضاءٍ من الصمت،
اروقةً من رماد،
واغنية من سكون
عذبتني المقابر،
هذا صديقي ينام وحيداً،
وهذي حبيبة عمري،
وذاك رفيق صباي،
وتلك التي أسبلت دمعها،
حين لاحت بوجهي الغضون
عذبتني الدروب،
رايت عليها الخطى
تستدير بلا وجهة،
ثم تمضي الى حيثُ لا يعرف العابرون
عذبتني صلاتك في الفجر
هل يكبر الطفل بين يدينا،
ويمنحنا الضحك،
ام لا يكون؟
عذبتني المتاهات،
والجرح والسجن
والضوء والظل
والليل والفجر
والحلم لا يوقظ الصوت،
بين الشفاه وبين الجفون..
تموز ١٩٨٦

اللقاء

مرحباً يا عروس الشمال
يا سفوح الشمال
جئت من اجل هذا السؤال
أين أغصانك الخضر
أين العيون الزلال
في الطريق اليك
نسيت الحصى والرمال
ونسيت الليالي الثقال
يا سفوح الشمال
يا ثلوج الجبال
يا عيون الصبايا، وحلم الرجال
هيئي موقداً لضلوعي
وقولي: تعال

❖❖❖

يا سفوح الشمال
يا كروم التلال
يا ثلوج، الجبال
إن لي نزق الطفل،
الحافه بالسؤال
عن حليب الامومة
فالفم مرتشفاً ما يزال
قربي من فمي الطفل برد الظلال
وأريحي الى كفه المهد
حتى يزول الزوال

❖❖❖

شاورت وردةٌ اختها
ها هو الآن جاء
متعباً، مثقلاً بالعناء
حاور الغصن اكمامه الخضر
هلا تمد السماء
نبعها في ليالي الشتاء
هل تمد الكروم اراجيها في العراء
لتدفأ اعراقه
وتغسل كف المطر
وجهه من تراب السفر

❖❖❖

رشدي العامل

يا رياح الشمال
يا عيون الشمال القصية عني،
أما من سؤال
اما تتركين السلال
بين كفي،
ام البرد خانك،
وانفض عنك الرجال
يا صبايا الشمال
يا مرايا من الورد، والثلج والبرتقال
يا حقولاً من الضحك والحزن،
والفجر والليل،
والضوء في مقلتي، والظلال
كيف اطوي دروب المحال
كيف اهمس للنبع
بين الغلال
وأداري بصدري السؤال..

❖❖❖

يا دروب الشمال
انت اتعبت دربي،
فقولي، تعال

❖❖❖

يا مرايا الشمال
انت أخفيت وجهي،
بين ثلوج الجبال

❖❖❖

يا سفوح الشمال
انت ضيعت صوتي
بين الكروم
وبين العيون الزلال

❖❖❖

يا دماء العناقيد
في هضبات الشمال
هذه قطرة من دمي
هذه لوعة في ضلوعي
هذه صرخة في فمي
جئت وحدي اليك
عروقي صلاة الى موعدي وابتهال

❖❖❖

منذ عشرين اناغي دريكم
وأغاوي وجهكم، فهو عيوني
منذ عشرين، وما زال الهوى
متعب العينين، وضاح الجبين
حلم ان نلتقي في لحظة
بين شك، في الحنايا، ويقين
حلم ان تلتقي اوجهنا
ويناغي الموج اضلاع السفين
جئتكم والرقص في اهدابكم
والدم الأسود ما بين جفوني

❖❖❖

أيها العمر الذي ألوى بنا
نحن شطران، وقلب واحد
من عذاب مستفز، وشجون
لم تفرقنا، ولم تبعدنا
صخرة الموت، ولا ليل السجون
نحن جسمان، وقلب واحد
دمه حلو، على النزف الدفين
جئتكم، كل جراحي نبضها
ان ترى الاحداق نبضاً في الجبين
أن أرى وجه على بينكم
واراكم ملء قلبي وعيوني
دافئة مواقد الشمال
من الرماد،
بعد الجمر،
والزؤان والرمال
باردة مواقد الرجال
تحت الثلوج والصقيع والندى
صامتة، لا ترجع الصدى
مظلمة ملاعب الجبال
تنتظر النجمة والهلال

❖❖❖

تبدل قبانٌ
ومالت منائر
فمن أي، أي المئذنات تصيحُ
هنا يشتكي جرح
وتبكي جريحة
ويرقد عند الضفتين جريح
ومرت بنا الاعوام
والسوط فوقنا
ولم يبق الا ناعبٌ وذبيحُ

❖❖❖

إن لي ذاكرة النار
اذا غطى على الجمر الرماد
ولي الزاد، اذا اجدبت الارض،
بصدري، واعداً، زاد المعاد
وبعيني يضحك البحر،
وترنو سنبلات الحقل،
والصبية في الحارة
هل يبقى من الليل سواد؟

١٩٩٠